عبد الغفار مكاوي
فيلسوف من بلد الشعراء

د. أنور مغيث(*)

في مقدمة لكتابه بكائيات.. ست دمعات على نفس عربية، وفي صيغة المونولوج يقدم الدكتور عبدالغفار مكاوي لنفسه تصويرا مليئا بالشجن والعذوبة، ولكنه يخفي في داخله ألوانا من الصخب والعنف. نعرف منها أنه لم يكن راضيا عن نفسه. ومع عمله المهم والحاسم والوفير في ثقافتنا العربية المعاصرة كان كثيرا ما ينظر وراءه إلى ما أنتجه في غضب، وينظر أمامه إلى ما عليه أن يؤديه في قلق وحيرة. لقد عاش حياته حائرا بين عشيقاته الثلاث، لو استعرنا تعبير كلود ليفي شتراوس، الفلسفة والترجمة والأدب، لم يكن يسعى إلى أن يعدل بينها، ولكن شعوره بالمرارة كان نابعا من أنه قد ظلمها جميعا. هكذا كان يناجي نفسه: أخشى ما أخشاه الآن: وأنا أحتضر وألفظ آخر أنفاسي، أن تتقدم مني العذارء وتهمس: هل تذكرني؟ وأذكر عندئذ أنني نسيت إني لم أكن أنا نفسي. يقول قائل يعزيك: ومن الذي حقق نفسه؟ أين الذي رضي عنها؟ وربما قلت لنفسك: حقا لم تتم عملا كبيرا، ولكن آلاف الصفحات التي كتبتها – يا للذنوب الثقيلة – لا تخلو من أنفاسك. ترجمت كثيرا وأنكرت نفسك؟ أليس هذا عطاء؟ ألم تعش وتجرب كل سطر.

أنه قلق مفكر وفنان في آن، يجمع بين الرغبة في إرضاء الذات ونفع الآخرين والتطلع إلى المثل العليا التي تعلو عن الذات وعن الآخرين ومرحبا بهذا القلق حينما يتحول إلى نار متوهجة فتخرج لنا أعمالا مضيئة وجميلة. نعم كانت هناك نفحة من الإبداع والجمال في كل ما كتب وترجم. يقولون لك: أنت تكتب الفلسفة بقلب شاعر، هل يعزونك أم يجرونك من أنفك كما جر فاوست تلاميذه عشر سنين. قد لا يهم في هذا المقام أن يرضى الإنسان نفسه

(*) أستاذ الفلسفة بكلية الآداب – جامعة حلوان.

ولكن المهم هو أن نرضى نحن. ونحن لسنا راضين فقط بل سعداء وممتنين، وشاكرين لهذا القلق الخلاق الذي ربما عانى منه كاتبنا الكبير.

التوتر بين الفلسفة والأدب، وضرورتهما لإنقاذ البشرية من مصير مأساوي كان هو من دفع الدكتور مكاوي للاهتمام بألبير كامي. لأنه الكاتب الذي اتحد في أعماله الفلسفة والأدب. وقدم في هذا الشأن لونا جديدا يختلف عما تعودنا عليه من فلاسفة فرنسا الذين قدموا أعمالا أدبية مثل فولتير وروسو وسارتر. فليست أعماله الأدبية كتابات شارحة لفلسفة ميتافيزيقية مصاغة بصورة مستقلة، وليست شخصياته مفاهيم متجسدة في صورة أفراد. كان أدبه هو فلسفته دافع آخر للاهتمام هو السيرة المأساوية لكامي: حيث مات أبوه الموظف وهو صغير وعملت أمه خادمة، ودافع عن حقوق العرب الجزائريين وهو طالب بالجزائر، وأصيب بمرض السل، وحين انتقل لفرنسا كان محررا لصحيفة كومبا السرية، لسان حال المقاومة الفرنسية ضد الاحتلال النازي. ثم مات وهو في قمة عطائه في حادث سيارة. ويقول الدكتور مكاوي عن كامي: وعاش في ألوان الصراع التي كابدها جيله إلى حد التوتر والتمزق، أقول لا يمكن للمرء أن يفصل هذا الإنسان عن شخصيات مثل سيزيف وميرسو وريو، ممن ساروا في طريق الأمانة والعذاب إلى أقصى مداه.

ويعتذر الدكتور مكاوي للقراء الذين يتوقعون منه تقديم نقدا أدبيا لأعمال كامي، ويصف تناوله لهذه الأعمال بأنها دراسة فلسفية تستخرج اللحظات الفلسفية في فكر كامي من خلال دراسة العمل ككل تجمع بين الأطراف المتقابلة بل والتي يشاع عنها أنها متناقضة في وحدة ديالكتيكية متشابكة. وهنا يقدم لنا الدكتور مقاربة جديدة لقضايا الفلسفة تعتمد على قراءة وتحليل النصوص الأدبية. فالكثير من الفلاسفة المعاصرين ينحون هذا النحو، فنجد بول ريكور يطرح مفهوم الذاكرة من خلال قراءته لرواية بروست، البحث عن الزمن المفقود، وديلوز يحدد منطق المعنى من خلال تحليله لرواية أليس في بلاد العجائب، ودريدا يطرح مفهوم المكمل من قراءته لكتاب الاعترافات لجان جاك روسو، وهنا يصيغ لنا الدكتور مكاوي تصورا جديدا عن فلسفة ألبير كامي من خلال أعماله الأدبية.

لقد عرف عن كامي تحديده لجوهر الوجود في العبث أو المحال بحسب ترجمة عبدالغفار مكاوي هذا المحال هو الذي حكم على سيزيف بأن يمضي عمره في أن يدفع صخرة إلى أعلى ثم لا تلبث أن تنحدر ليعاود عمله الشاق من جديد. وميرسو في رواية الغريب الذي يقتل

بصورة مجانية شخصا لا يعرفه، ومارتا الفتاة التي تتعاون مع أمها في قتل أخيها الغائب بعد عمر طويل نتيجة سوء تفاهم، وكاليجولا الامبراطور الروماني الذي دفعته محالية العالم إلى محاولة امتلاك الناس عن طريق قتلهم، لقد خانوا جميعا تجربة المحال التي تدعوهم للتشبث بالحياة بالرغم من خلوها من المعنى فكانت مصائرهم مأساوية. وتبدو هذه الشخصيات متعارضة مع شخصية ريو الطبيب الذي يقاوم الوباء في مدينة وهران، ولكنه كان يشعر في نفس الوقت أنها مقاومة لا طائل من ورائها، ولكن هذا المحال هو الذي يدفع كامي إلى القول بأن الحياة تعاش بصورة أفضل كلما كان لا معنى لها ولذا ينتهي كامي إلى ضرورة التمرد بمعنى وضع العالم موضع السؤال. بل يصبح هو روح الحياة ويجعل الفرد يخرج من الأنا إلى النحن، بل ويتحول إلى مقام وجودي يعارض الكوجيتو الديكارتي، أنا أفكر إذن أنا موجود والقائم على الذاتية وعلى الفكر، فيتحول هذا الكوجيتو مع كامي إلى أنا أتمرد إذن نحن موجودون.

قراءة بديعة يقدمها الدكتور مكاوي يتجاور فيها أسماء الفلاسفة مع أسماء شخصيات الروايات والمسرحيات. ويخلق الدكتور مكاوي بين هذه الشخصيات شبكة خفية من العلاقات تمتد عبر مجمل الأعمال الأدبية لكامي. وتتحول الشخصيات إلى مواقف فلسفية ووشائج تربط بين قطبي فكر كامي: المحال والتمرد.

كان الدكتور مكاوي يبحث عن الفلسفة لدى الشعراء وعن الشعر لدى الفلاسفة وكان يحب دائما أن يكون في صحبة الشعراء: في بيتهم، كما هو الحال في كتابه ثورة الشعر الحديث حيث نعيش في معية بودلير ورامبو وريلكه وغيرهم. ولقد كان لانتشار الثقافة الفرانكفونية بين أدبائنا وكتابنا أن عرفنا كبار شعراء الفرنسية في وقت مبكر، وأراد الدكتور مكاوي بتمكنه من لغات عدة بينها الألمانية أن يفتح أمام القارئ العربي باب التعرف على الشعراء الألمان مثل جوته وهولدرلين وبريخت. وحتى حينما كان يجول في أرض الفلاسفة نجده يبحث عن ذرائع ليصطحب هؤلاء الشعراء معه. ويكفي أن ننظر إلى كتابه جذور الاستبداد الذي يوحي عنوانه أنه بحث وضعي في الفلسفة السياسية، فنجده يحوي بين دفتيه ملاحم وأساطير وقصائد وحكم وأمثال.

وحينما أراد الدكتور مكاوي أن يكتب عن الفلسفة بوصفها هما وانشغالا كتب كتابا هو في حقيقة الأمر قصيدة طويلة في مديحها بعنوان لم الفلسفة؟ والعنوان هنا يحيلنا إلى بيت الشعر الذي قاله هولدرلين: لم الشعراء في الزمن الضنين؟ أن يكون العنوان سؤالا هذا أنسب

إلى الفلسفة، وقد يكون الغرض من السؤال الاستفهام أو الاستغراب أو حتى الإنكار، المهم مجرد طرح السؤال يعني أن وجود الفلسفة هش ومهدد. وهي اللحظة التي ينبغي على الفيلسوف فيها أن يبين ضرورتهاولزومها. ومن هنا فالكتاب ليس عرضا لأعلام الفلسفة ومذاهبهم مثل باقي كتب المداخل الفلسفية، بل إنه ليس كتابا عن الفلسفة ولكن عن التفلسف. وهو النشاط الذي يفرضه على الإنسان الشعور بالاندهاش أو التعجب الذي يحمل في طياته ملمحا من الألم وملمحا من الفرح. ولكن لا تفرطوا في التفاؤل، فليس لدى الفيلسوف حقائق مطلقة يقدمها لكم، بل ربما كان جوهر عمله هو زعزعة ما تطمئنون إليه من حقائق، وهذا ما يسميه الدكتور مكاوي بآلية الإرباك. وليس الهدف من الإرباك هو التلاعب بالعقول بل هو دفعنا إلى وضع معارفنا واعتقاداتنا موضع المراجعة والتساؤل هي دعوة لتجنب ضيق الأفق والتعصب وهو بهذا المعنى يعد مقاومة التلاعب بالعقول.

الفلسفة إذن ليست لها مجال بعينه وليست نشاطا يتوقف عند غاية معينة بل كما يقول مكاوي: «الفلسفة طريق» يسير فيه الفيلسوف. الفيلسوف إذن عابر سبيل وكثيرا ما تواجه الفلسفة تهما ولكنها ليست بريئة منها. مثل تهمة التعالي عن الواقع. نعم هو ضرورة فلسفية إذ كيف لفيلسوف أن يقدم نظرة عامة وكلية وهو غارق في تفاصيل الحياة اليومية. إن الخروج من الكهف، كما في أسطورة أفلاطون، ضرورة لإدراك الشمس الحقيقية. ولكن الفيلسوف ليس هو الشخص المحلق المتأمل المحلق في السماء والذي يتعثر في سيره فتضحك منه الفتيات. فلا مجال للوصول لأي حقيقة بعيدا عن أرض الواقع وروح العصر أليست الفلسفة بحسب تعريف هيجل هي عصرها معبرا عنه في الفكر. نقد الواقع إذن هو أساس الفلسفة، وبدون نقد الواقع تكون الفلسفة في نظر الدكتور مكاوي كالعين التي لاتبصر والقلب الذي لا ينبض. الفلسفة إذن طريق محفوف بتوترات لا تهدأ ولا تستكين: الإفلات من الواقع أو الانغماس فيه، التعبير عن الذات أو عن الآخرين، الهدوء أو الثورة لقد عاش سقراط ومات في هدوء لكنه يظل مثالا للثورة الفلسفية المتجددة. الفلسفة ليست طريقا رحبا مريحا ولكن صرامتها ودقتها تجعله يبدو كالصراط في مشاهد يوم القيامة أو كما يقول الدكتور مكاوي الفلسفة أشبه بالرقص المستمر على حبل.

وقد يتهم الفلاسفة بالانحياز والمجاملة، فلقد أخذ علي هيجل أنه جعل من النظام السياسي البروسي في عصره أعلى مرحلة يصل إليها الروح المطلق في التاريخ. ولكن محنة هيجل أنه كان

عليه في ثنايا هذا الكلام أن يعلم تلاميذه تجنب ضيق الأفق. وأن يعرفوا أن ماهية التاريخ هي في التقدم في الحرية، وأن تطور البشرية مرهون بهذا الوعي، وأن الشعوب تندثر إذا ثبت أن مبادئها لم تعد تلائم روح العصر. توتر آخر تعيش فيه الفلسفة فهي تنبت داخل ثقافة معينة ولكن خطابها ينبغي أن يكون إنسانيا عاما موجها لثقافات الآخرين. ولكم نادينا نحن في ثقافتنا بالقومية العربية ثم بالاشتراكية العربية. ولكن الأمر لم يكن سوى طنينا لأننا نسينا الحرية. إذ كيف توقعنا أن تخضر الجنة تحت أقدام الجراد وتتفتح الزهور في كف الجلاد.

الفلسفة هي التعبير عن عصرها على مستوى الفكر. ولهذا طرح كل عصر على الفلسفة إشكاليات جديدة ولكن بواكير عصرنا الذي نعيش فيه حملت للفلسفة تهديدا بالفناء والموت. فهي في نظر الوضعية مرحلة قد انتهت وعليها أن تخلي مكانها للعلم، وفي نظر الماركسية تأمل مجرد ينبغي أن يحل محله الدراسة العلمية للمجتمع للتعرف على مشكلات البشر الواقعيين، وفي نظر فلسفة التحليل هي ركام من العبارات التي ينبغي أن تخضع لمبضع التحليل اللغوي. ولكن ها هي الفلسفة تغضب حراس القبول وتنهض من رمادها الدليل على ذلك عند الدكتور مكاوي هو ثورات الشباب وما صاحبها من نظريات نقدية وبنيوية وماركسية جديدة.

إن الواقع هو الذي ضخ الدماء الجديدة في الفلسفة وليس قاعات الدرس. وعندما يرصد الدكتور مكاوي صورة لواقعنا العربي فإنها في الغالب تكون سلبية مليئة بألوان من التسلط والزيف وعدم الجدية. ولكنه كان يرى أن الأمر لا يمكنه أن يدوم على هذا الحال وكان يعول على الشباب لكي ينقل بلادنا إلى واقع أجمل وأنبل كنا ونحن طلاب نشعر بضآلتنا أمام علمه الواسع وعمقه وحكمته، ولكنه كان شديد الإعجاب بحماسنا وطموحاتنا غير الواقعية. ولهذا نراه يختم مناجاته بنداء للشباب مستوحى من قصيدة ترجمها لبريخت بعنوان إلى الأجيال المقبلة: «أنتم يا من ستظهرون بعد الطوفان الذي غرقنا فيه، فكروا عندما تتحدثون عن ضعفنا، في الزمن الأسود الذي نجوتم منه. وإذا رأيتمونا نبكي، فاذكرونا وسامحونا».